الأغراس والبساتين في المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط وبداية العصر الحديث

الانتشار والوظائف والانحسار

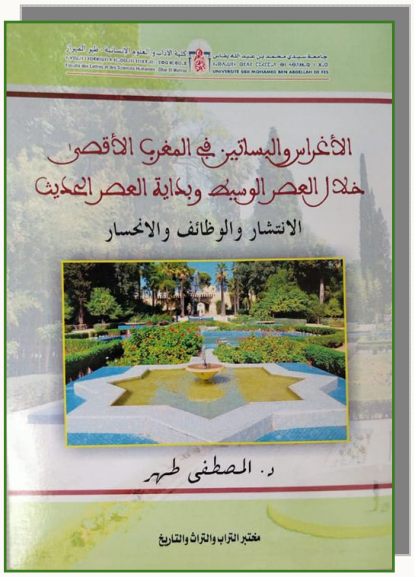

د. عبد الهادي البياض

أستاذ التاريخ والحضارة بكلية الآداب
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
فاس – المملكة المغربية

بيانات الكتاب

المؤلف: الأستاذ الدكتور المصطفى طهر
الناشر: منشورات مختبر التراب والتراث والتاريخ
كلية الآداب، ظهر المهراز بفاس
جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس

الطبعة: الأولى. سنة النشر: ٢٠٢٢
عدد الصفحات: ١٤٧ صفحة من الحجم الكبير
مكان النشر: فاس - المغرب.

كلمات مفتاحية:

مغرب أقصى، أندلس، غرب إسلامي، أغراس، بساتين

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2024.267856

مقدمة

لا شك أن الأغراس والبساتين شانها شأن باقي أنواع المزروعات تتأثر بالظروف الطبيعية والبشرية، وفي هذا المنوال برع مهندسو الفلاحة الأندلسية من خلال تجاربهم المتنوعة في دراسة المؤثرات المناخية والتضاريسية، مقابل تأهيل العنصر البشري من خلال إكساب الفلاحين مهارات وقدرات في خدمة الأرض ومعالجتها. وفي هذا الشأن رصد محمد بن ابراهيم المعروف بابن بصال (توفي حوالي سنة ٤٩٩هـ/١٠٩٩م) مكونات التربة واستقصى خصائصها، وبين ما يناسب طبائعها من المغروسات والمزروعات وما يهددها من الجوائح والآفات، وما لا يؤثر فيها من خلال قياس طبائع التربة الأربعة؛ المتجلية في "الليونة والرطوبة واليبوسة والحروشة"[1].

غير أن التجارب التي قام بها أحمد بن محمد بن حجاج الإشبيلي (من أهل النصف الثاني من القرن ٥هـ/١١م)، على أصناف التربة أفرزت معايير أخرى في تحليل التربة

رام من خلالها تعميم نتائجها على سواد الفلاحين، قوامها تفعيل وظيفة الحواس من معاينة وذوق وشم ولمس[٢]. بينما رام أبو الخير الإشبيلي (توفي سنة ٤٩٩/٤٩٨هـ/١١٠٥م) استقصاء نوعية الغطاء النباتي الذي يكسو سطح الأرض، ومن خلال تحليله على مستويات النوع والكثافة واللون يوجه المزارع والغارس لما يوائم كل صنف منها[٣]. وبالتالي ساعدت التجارب الأندلسية المذكورة في تمييز ما يوافق الغراسات وما يلائم الزراعات وما يصلح للجنات والحدائق والبساتين، وذلك اعتمادا على جرد أصناف التربة، ورصد خصائصها من حيث غنى مكوناتها أو فقرها، ومدى مقاومتها للمؤثرات الطبيعية، مع تقديم البديل المناسب لتخصيبها بالأسمدة الطبيعية من بقايا زبول الحيوانات والدواجن والطيور.

وبما أن الأرض تمثل قاعدة انطلاق عمليات الإنتاج بمراحلها المختلفة، فقد أولى علماء الفلاحة عناية لدراسة التربة وتصنيف أنواعها وتشخيص تركيبتها. وفي هذا المضمار أفرز تعدد التجارب في الضيعات والحدائق والمنيات الأندلسية غنى الفكر الفلاحي التجريبي بإبداع وضعيات إنتاجية تناسب كل صنف من التربة.

سياق تبلور إشكالية الدراسة

تعززت رائد الخزانة العربية بميلاد "كتاب الأغراس والبساتين في المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط وبداية العصر الحديث"، سنة ٢٠٢٢، لصاحبه الأستاذ الدكتور المصطفى طهر، منشورات مختبر التراب والتراث والتاريخ الموطن بكلية الآداب، ظهر المهراز بفاس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس، المغرب، ويبلغ عدد صفحاته ١٤٧ صفحة من الحجم الكبير.

تتشكل بنية الكتاب من أربعة فصول استهلها بمقدمة وذيلها بخاتمة، مشفوعة بفهرس للجداول وقائمة ببليوغرافية وفهرس للمحتويات. وزع المؤلف القضايا المحورية للكتاب ضمن أربعة فصول متكاملة، وسم الفصل الأول بـ"الغراسة والبستنة بين الموروث المستورد والمكتسب"(٧-٣٦)، ووسم عنوان الفصل الثاني بـ"مقومات البستنة: الأرض والماء والإنسان"(٣٧-٨٦)، في حين ضمن الفصل الثالث "البعد الوظيفي للبساتين"(٨٧-١٠٦) أما الفصل الرابع فاختار له عنوان: "عوامل انحسار البستنة"(١٠٧-١٢٤).

كشف مؤلف الكتاب الأستاذ المصطفى طهر في مستهل التقديم أن الندوة التي نظمتها شعبة التاريخ بكلية الآداب بظهر المهراز بفاس في أواخر الثلث الأول من دجنبر ٢٠١٥م في موضوع الفلاحة في تاريخ المغرب؛ كانت مخاضا لبلورة إشكالية الكتاب، حيث أسهم فيها بمداخلة تحت عنوان: "البستنة في تاريخ المغرب الوسيط". ومن خلال مواد جلسات الندوة المذكورة؛ وما أثارته محاورها من قضايا وإشكالات، خطر ببال المؤلف إعادة النظر في مداخلته المذكورة؛ وذلك على ضوء توسيع دائرة البحث والقراءة والتقصي مما مكنه من الاطلاع على "الأعمال الرائدة في تاريخ الفلاحة والملكية العقارية"، وهذا ما يسر له تطوير المداخلة المعنية وإنضاج قضاياها الكبرى وتحويلها بالنهاية إلى الكتاب الذي نتشرف بقراءته تحت عنوان: "الأغراس والبساتين في المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط وبداية العصر الحديث (الانتشار والوظائف والانحسار)"[٤].

أولى المؤلف في دراسته للغراسة والبستنة في الفصل الأول عناية لتكامل مندمج بين ثلاثة أبعاد، وهي: الموروث والمستورد والمكتسب، حيث أشار في سياق التأصيل للموضوع إلى شذرات الموروث من الأنشطة الفلاحية خلال فترات غابرة من تاريخ المغرب القديم[٥]. وبالمثل فصل المؤلف في رصد المستورد إلى المغرب الأقصى من الخبرة الأندلسية التي أحدثت طفرة نوعية في مجال الغراسة والبستنة إبان القرنين الخامس والسادس الهجريين (١١-١٢م)[٦]، معتمدا على ما راكمه يحيى بن العوام (ت.٥٨٠هـ/١١٨٤م) من خبرة قائمة على الرصد والتجربة في مصنفه المعقود لعلوم الزراعة والغراسة والبستنة وإنباط المياه[٧].

وفي هذا الصدد لاحظ المؤلف من خلال "كتاب الفلاحة" أن رؤية ابن العوام الناجعة في الغراسة والبستنة تمر حصرا عبر ثلاث مراحل أساسية، وفي طليعتها دراسة التربة لمعرفة ما يناسبها من الأغراس، ولهذه الغاية عمد المؤلف –في إطار مد المهتمين بخلاصات الكتاب-إلى تفريغ ما انتهى إليه ابن العوام من نتائج في جدول بشأن خصائص أصناف الأتربة وما يجود فيها من مغروسات ومزروعات بحسب طبائعها ومميزات أمزجتها[٨] المرتبطة بالرطوبة واليبوسة والحروشة واللين،

وهي ما تسميه كتب الفلاحة الأندلسية بالطبائع الأربعة أو الأسطقسات.

وتخضع المرحلة الثانية حسب ابن العوام إلى مؤهلات العنصر البشري الممارس لعمليات الزراعة والغراسة في الميدان، ويتعلق الأمر تحديدا بمدى خبرة الغارس في انتقاء أجود الفسائل والشتلات الموائمة لطبيعة المناخ السائد ومزاج الكتل الهوائية، وما تصلح به المغروسات من أصناف المياه، وأنواع الزبول والأسمدة[٩]. فيما خصص المرحلة الثالثة في مشروع الغراسة للمواكبة والتعهد؛ وفيها يتم رصد تقنيات التركيب وأوقات التطعيم والتقليم والعلاج من الأمراض والآفات، ثم ختم هذه المرحلة بتصور ابن العوام لمقومات إعداد بستان نموذجي راعى فيه خصوصيات اختيار المواقع وطبائع الأتربة وأنواع المياه ومميزات المناخ، طبعا دون إغفال تصميم توزيع الأشجار بنوعيها المثمرة والمعدة للظل وتأثيث فضاءات الاستجمام كالصنوبر والصفصاف، وكذا للزينة وطيب الرائحة ويندرج فيها أصناف الرياحين وأنواع الورود[١٠].

وفي سياق التنويه بخبرة مهندسي الفلاحة الأندلسيين، أشاد المؤلف إلى انتقال الأساليب والتقنيات والأفكار في مجال الغراسة والبستنة من الأندلس إلى المغرب الأقصى في مراحل تاريخية متعاقبة وممتدة من الحقبة الأموية وصولا إلى العهد المريني؛ ويتعلق الأمر بانتقال التراث الفلاحي المكتوب عن طريق النسخ والتلخيص، فضلا عن إسهامات المهاجرين والمهجرين الأندلسيين في ظروف تاريخية متباينة "في تغيير معالم الحياة في القرى والحواضر المغربية"[١١].

وفي هذا الإطار، أشار صاحب "كتاب الأغراس" في سياق تأكيد انتقال مهارات علماء الفلاحة وأفكارهم إلى عدوة المغرب أسهم في صقل قدرات الفلاح المغربي تجلى ذلك في ترسيخ ثقافة برنامج متكامل لأنشطة المغروسات والمزروعات على امتداد تقويم سنوي يبدأ من مستهل يناير ويختتم بنهاية دجنبر ليس في المغرب الأقصى فحسب، وإنما شمل ربوع الغرب الاسلامي برمته[١٢]، ولعل هذا التأهيل هو ما حدا بالمؤلف إلى التساوق مع استنتاج ابن خلدون الخبير بطبائع العمران البشري بتأكيد انتقال أنشطة الفلاح من الضروري للمعاش إلى الترفي من خلال تنميق البساتين باعتبارها من توابع الحضارة[١٣].

ومن خلال رصده لأسماء بساتين المغرب الأقصى لاحظ مصنف الكتاب أنها غنية ومتنوعة لكنها تطرح في نظره إشكالات جمة مرتبطة بمساحتها، وشكلها، وأوصافها، وتعدد مسمياتها إلى حد التعقيد والغموض، ولهذا اقتصر في نهاية الفصل الأول على تسليط الضوء على ستة نماج منها فحسب، وهي: الجنة والحديقة والمنية والبحيرة والعرصة والروضة[١٤].

بنية الكتاب وقضاياه المحورية

تطرق المؤلف في الفصل الأول للأبعاد الثلاثة المتحكمة في الغراسة والبستنة، وهي تباعا: الموروث والمستورد والمكتسب، وهو في اعتقادنا فصل مؤسس يروم من خلاله صاحبه التأصيل لدراسته، من خلال التنويه بدور المدرسة الفلاحية الأندلسية في تحقيق طفرة نوعية في الفلاحة والبستنة بالمغرب الأقصى وهو ما اشار إليه بلفظ "المستورد"، متخذا من تقعيدات الفكر الفلاحي لابن العوام خلفيته المنهجية، لسبب رئيس يتجلى في تفرد ابن العوام إلى جانب الزراعة بخبرة في مجالي الغراسة والبستنة.

عمد الأستاذ المؤلف في دراسته لمقومات البستنة في الفصل الثاني إلى رصد زوايا مثلث تكتنف أضلاعه شبه المتساوية ثلاثة مفاتيح، وهي الأرض والماء والإنسان. ففي المجالات التضاريسية المتنوعة تطرق المصنف إلى مميزات وحدات الجبال المرتفعة؛ وبسائط السهول شمال ووسط وجنوب بلاد المغرب الأقصى مركزا على تنوع مناخها وطبيعة جريان أنهارها وخصب مزروعاتها وتعدد أشجارها المثمرة وتكامل موارد عيش سكانها؛ مشيرا إلى أدق التفاصيل التي أثارت انتباه المؤرخين والجغرافيين والرحالة، طبعا دون إغفال انتقال نمط البستنة من الشمال والوسط لتشمل بلاد السوس ودرعة وسجلماسة[١٥].

وفي سياق تحليل موضوعي حذر ربط صاحب "كتاب الأغراس" العنصر الثاني من مقومات البستنة بين دور موارد المياه والانتشار الجغرافي للبساتين بالمغرب الأقصى، وفي هذا الصدد فقد استقصى مصادر المياه الجوفية والسطحية موضحا أثرها في انحسار أو اتساع

المساحات المغروسة سواء في مجالات حضرية أو قروية تبعًا لوفرة المياه ومدى انتظام أو موسمية الجريان[١٦].

ولتوسيع المجالات المغروسة قام بجرد البنيات المائية التي أبدعها إنسان المغرب الأقصى وهو الضلع الثالث؛ معتبرًا أن المغاربة راكموا خبرة واسعة في استنباط مياه العيون والآبار للشرب وسقي الجنات والبساتين بالمدن والقرى على حد سواء. ولسد الخصاص في ندرة المياه عمد المغاربة نوه المؤلف بنجاعة إحداث المغاربة للأنفاق والسواقي المفتوحة والخطارات التي أبدعها مهندسو المياه خلال العهدين المرابطي والموحدي[١٧]. كما تعقب المؤلف في قراءة متأنية للأجناس المصدرية أهمية القنوات المرفوعة على الأقواس (Aqueducs) إبان العهدين الموحدي والمريني بحواضر فاس ومكناسة وسلا وأصيلا، وسوس(...) وبالإضافة إلى دورها في توفير المياه العذبة الصالحة للشرب، فقد شمل نفعها سقي البساتين والحدائق وإنشاء العمائر والرياضات[١٨].

وبالمثل فقد رصد الأستاذ طهر استعمال المغاربة للنواعير والسواني على أوسع نطاق؛ وتعد حسب تحريه من بين التقنيات التي انتقلت من الأندلس إلى المغرب؛ مما سهل رفع المياه من أحواض الأنهار، وأسهم في توسيع المساحة المسيقية من الحقول والبساتين، وفي هذا المنوال كانت بعض بحائر مراكش الموحدية مجهزة بالنواعير، كما أسهمت الناعورة العظمى التي تم الفراغ من تركيبها في مستهل عهد السلطان المريني أبي يوسف بن يعقوب، في تيسير تزويد بساتين فاس بحاجاتها من مياه السقي؛ وذلك منذ بداية دورانها في شهر صفر ٦٨٦هـ/١٢٨٧م[١٩]. كما حدثنا عن أهمية استغلال المغاربة لتقنيات مائية أخرى مماثلة للنواعير تعرف بالدواليب في سقي رياضات سبتة وبساتين آسفي وحقول سجلماسة.

كما قدم المؤلف استنادًا إلى مصادره لمحة عن عناية إنسان المغرب الأقصى بتخزين المياه وإقامة السدود كما هو الشأن في سدود غرب نهر سبو بضواحي صفرو، والريف الغربي وتازة وجرسيف وسوس؛ والموجهة لتوسيع المساحة المسقية، وري البساتين من خلال ربط السواقي بالسدود التلية[٢٠]. ولصيانة الثروة المائية وترشيد استغلالها في استدامة مياه السقي عمد إنسان المغرب الأقصى في الحقبتين الموحدية والمرينية إلى تجهيزها بصهاريج وخنادق وبرك وأبراج المياه لعقلنة استغلالها عبر وصلها بقنوات وسواقي لجر المياه داخل البساتين ومدّ المزروعات ومختلف الأغراس بحاجاتها من المياه[٢١].

وفي إطار استدامة التعايش بين مكونات المجتمع نوه المؤلف باعتماد المغاربة أنظمة سقي تمتح أصولها من الشرع والعرف عبر تاريخ الحقبة مدار الدراسة، وذلك من خلال منح الأسبقية للأعالي على الأسفلين بحكم مراعاة عامل ارتفاع السطح التضاريسي؛ فضلا عن نزع فتيل النزاع بسن أعراف لتقسيم المياه إلى حصص ونوبات وحظوظ معلومة[٢٢]. وبخصوص عناية المغاربة بالغراسة وإحداث البساتين واتخاذ الضياع، أبرز المؤلف تشجيع أولي الأمر للفلاحين وندبهم إلى إحياء الأراضي الموات بجر المياه وحفر الآبار وتوسيع مجال المساحة المغروسة ليشمل فضلها الإنسان والحيوان استجابة لأمر الشرع في نيل ثواب الصدقة والأجر، وساق لتأصيل ذلك نصوصا ضافية من القرآن والسنة[٢٣].

واستنادًا إلى ما جمعه من مادة علمية، أورد صاحب "كتاب الأغراس" أمثلة من واقع تاريخ المغرب الأقصى لدعم تحليله بهذا الصدد، منها: توجيه المولى إدريس الثاني عناية أهل فاس بالتنافس في غرس الأرض وعمارتها. وبالمثل استفادت حاضرة مراكش في العهدين المرابطي والموحدي من خبرة الأندلسيين في استصلاح الأراضي وإحيائها وغرسها، فازدانت مراكش ببحيرة الرقائق السلطانية والمعروفة كذلك بجنان الصالحة، وتنافس خلفاء بني عبد المومن في إحداث الرياض والبساتين والبحائر؛ حتى امتد مجال الجنات والبساتين خارج عاصمتهم بحواضر رباط الفتح ومكناسة وفاس وتازة[٢٤].

كما تعقب الأستاذ طهر تقصي المادة المصدرية المؤكدة لاستدامة هذا السلوك مع سلاطين بني مرين الذين في تنميق وإبداع حدائق سلطانية مميزة؛ نذكر منها بستان المصارة الذي غرس عام (٦٨٦هـ/١٢٨٧م)، وروض الغزلان المنسوب حسب المنوني للسلطان أبي سالم، هذا فضلا عن حدائق قصر أفراك –بناه السلطان أبو سعيد عثمان-التي شيدت بالقرب من سبتة في العَقد الثالث من القرن٨هـ/١٤م. هذا وقد لاحظ المؤلف من خلال المراس الميداني اكتساب الجنانين المغاربة لمهارات نوعية في إعداد البساتين والحدائق اقتباسا من

خبراء البستنة الأندلسيين، ولاسيما في العهدين الموحدي والمريني. لكن المصنف خص بالتنويه فئة العبيد الجنانين الذين استخلصهم خلفاء الموحدين للعمل في بساتينهم وضيعاتهم الخاصة؛ لما امتازوا به من مؤهلات وإتقان في هذا المجال[٢٥].

ويفهم مما استمده المؤلف من مضمرات النصوص – على قلة ما تجود به- أن نشاط الجنانين لم يعدّ حكرًا على بساتين الأمراء؛ بل تعداه إلى العمل في جنات الخواص وعرصات عِلية مجتمع المغرب الأقصى من الأعيان والصلحاء والعلماء وبيوتات الحواضر؛ وذلك بناء على شروط وضوابط محددة في عقود المغارسة والمزارعة والمساقاة[٢٦]. ولتأكيد هذا التحول نحو ترف العيش فقد أنجز المؤلف جدولا ضمنه أنواع الجنات والعرصات والرياض بتازة وضواحيها محددا وضعيتها القانونية خلال الفترة الممتدة من أواخر العصر الوسيط وبداية العصر الحديث[٢٧].

وفي الفصل الثالث من الكتاب، أماط المؤلف اللثام عن الأبعاد الوظيفية للبساتين مركزا على البعد الاقتصادي لمنتوجات البساتين من الفواكه المتعددة، والمكسرات من الجوز واللوز والثمار القابلة للتجفيف والتخزين، والزيت والزيتون، والتين والزبيب التي تجاوزت كمياتها في بعض الفترات حد الكفاف، ليخلص من خلال تواتر الإشارات المصدرية بهذا الصدد إلى أن بلاد المغرب الأقصى أخذت في بعض الحقب من تاريخ العصر الوسيط وبداية العصر الحديث تصرف فائض إنتاجها إلى أسواق خارجية بما فيها حواضر الأندلس؛ مما كان يسهم في إنعاش الحياة الاقتصادية لبلاد المغرب[٢٨].

وعليه؛ فقد انتقل صاحب الكتاب في تحليله إلى رصد مختلف الوظائف السياسية والعسكرية للبساتين والبحائر في العهدين الموحدي والمريني مؤكدًا استثمار فضاءاتها في الاستقبالات الدبلوماسية الرسمية؛ وإطعام الوفود، وإبراز الجند والقبائل المتطوعة تمهيدا للقيام بحملات عسكرية، ونزول الخلفاء خلال تسيير الحملات العسكرية.

وفي بداية العصر الحديث نوه المؤلف باهتمام المقاومين المغاربة بالبساتين والحدائق شمال البلاد حين اتخذوا منها مجالا لنصب الكمائن للإيقاع بقوات الاحتلال البرتغالي. كما شكلت العرصات ملاذا للسكان عند شعورهم بخطر داهم. وبالمثل قصدها المنقطعون من الغرباء وأبناء السبيل للتزود من ثمارها بمباركة ملاكيها رغبة في تحصيل ثواب الصدقة[٢٩].

هذا ولم يغفل المصنف الإشارة إلى الدور الترفيهي للبساتين؛ باعتبارها فضاءات للاستجمام والنزهة لاسيما في فصلي الربيع والصيف، حيث استغل الشباب صهاريجها في السباحة للتخفيف من وهج الحر. كما ازدانت البيمارستانات بفضاءات خضراء تزينها أشجار وورود ومشمومات؛ تبعث بجمالها وعبق رائحتها الطيبة طمأنينة وجدانية، تساعد المرضى على تجاوز الضغوطات العصبية والتوترات النفسية الحادة[٣٠].

واستنادًا إلى وقائع الحقبة مدار الدراسة؛ رصد المؤلف في الفصل الأخير مجمل العوامل الطبيعية التي أسهمت في انحسار البستنة وتراجعها بالمغرب الأقصى؛ مبرزًا دور العواصف والأعاصير والسيول الجارفة في تخريب الجنات وإتلاف المغروسات[٣١]. وبالمثل أشار إلى أثر موجات الجفاف التي عصفت بالبساتين والحقول في نضوب المياه؛ مما أفرز في نطره نزاعات بين المتضررين جراء تأثر موارد عيشهم، كما أسهمت أسراب الجراد في إتلاف محاصيل البساتين وتركتها قاعًا صفصفًا، وأرضًا بورًا[٣٢].

وإلى جانب العوامل الطبيعية المؤثرة، لم يغفل المصنف الإشارة إلى خطورة العوامل البشرية التخريبية للمجالات الخضراء وخاصة إبان الحروب والفتن والتمردات؛ حيث يصبح إتلاف المحاصيل وإحراق الأشجار وقطعها؛ عاملا من عوامل إرغام الخصم على الاستسلام. وبالمثل اعتبر التوسع العمراني وتزايد النمو الديمغرافي سببا للإجهاز على المساحة المغروسة، مستدلاً على وجاهة هذا المعطى باتساع عمران فاس الموحدية؛ حيث استقبلت موجات المهاجرين من أصقاع وأجناس متنوعة قدموا إليها من العراق وإفريقية والأندلس؛ وما الإحصاء الدقيق الذي قدمه ابن أبي زرع عن كثرة مرافقها الاقتصادية والدينية والاجتماعية إلا دليلاً ساطعًا على توسع عمرانها على حساب عرصاتها وجناتها وبساتينها[٣٣].

كما استرشد المؤلف بالرؤية الخلدونية للشطط الجبائي في رصد الإجحاف الضريبي، وسياسة الإقطاع التي نهجتها الدول المتعاقبة على حكم بلاد المغرب في العصر الوسيط وبداية الحديث، ومدى إسهامها في عزوف المزارعين والمغارسين عن العمل في الحقول

والبساتين، لإثقالهم بمسميات عديدة من أصناف المكوس والضرائب في المراحل الانتقالية المواكبة لأفول دولة وقيام أخرى، وذكر من هذه الكلف الجبائية التي أرقت كاهل الرعايا: الخرص ومغرم الماء فضلا عن تجاوزات القشاشين. وبالتالي اعتبر رد فعل الفلاحين تصرفا طبيعيا تمثل في هجرة ضيعاتهم وحقولهم وأسلموا مغروساتهم للجفاف، وأهملوا خدمتها حتى تبورت[٣٤].

وختم المؤلف هذا الفصل الأخير بدور الحروب والفتن في خراب الجنات والبساتين لتحول معظمها إلى ساحات للمعارك، ومرتعا للنهب والغصب والإتلاف مستدلا بالتخريب الممنهج الذي قاده العبيديون بمدينة البصرة التي اندثرت نهائيا بسبب اجتياحهم لها سنة (٣٦٨هـ/٩٧٨م)، وكذلك الشأن بالنسبة لخراب بساتين نكور قاعدة إمارة بني صالح الحميريين. وبالمثل كان خراب المزارع يشتد في المراحل الانتقالية، مستدلا باستهداف طلائع بني مرين لمزروعات القبائل المنتفضة ضدهم بعد إسقاط مراكش عاصمة الموحدين، كما أمعنوا في تغوير العيون وقنوات المياه.

وفي هذا السياق المطبوع بغياب ظل الدولة وانتفاء الأمن كانت القبائل المتغلبة تعيث فسادا في الحقول والمغروسات. مقابل ذلك أشار في بداية الحقبة الحديثة إلى إجهاز جيوش الاحتلال البرتغالي على بساتين وضيعات الفلاحين بمنطقتي الهبط وتامسنا لمنع المقاومين من نصب الكمائن التي كانت تودي بحياة قواتهم، فاضطر أصحابها إلى الفرار وأرغموا على إهمالها توجسا من المصير المجهول[٣٥].

وأفرد المؤلف خاتمة دراسته لتسطير جملة من الخلاصات النوعية منها: إن انتشار البساتين رهين بالسقي من خلال الاستثمار في البنيات المائية والعنصر البشري؛ الذي استفاد من استقدام خبراء أندلسيين أسهموا في تأهيل العنصر المحلي، ومن نتائج ذلك انتشار بساتين السقي في معظم حواضر بلاد المغرب الأقصى إبان العصر الوسيط وبداية العصر الحديث. كما سجل المؤلف أن الجنات والبساتين لم تعد حكرا على عِلية القوم، بل وجد بعضها طريقه إلى مؤسسات دينية وتعليمية وصحية من خلال عمليات التحبيس والوقف المستدام.

كما توصل المصنف من خلال عمق تحليله إلى رصد أدوار اقتصادية وعسكرية وسياسية وترفيهية للبساتين والحدائق والبحائر المواكبة لفترات قوة الدول القائمة، مقابل ذلك سجل المؤلف ضمور الأدوار المذكورة للبساتين والرياضات والمنتزهات إبان ضعف هيبة الدول وقلة الأمن وسيادة الفتن والحروب والكوارث الطبيعية.

خاتمة

قصارى القول، يبدو أن مؤلف "كتاب الأغراس" التزم - ما أمكنه- توازنا في فصول دراسته الأربعة، بأسلوب سلس يغري القارئ ويجذبه إليه، ذلك أن من يتفحص الكتاب موضوع القراءة يلحظ أنه يعتمد تقسيما موضوعاتيا للقضايا أملته عليه في الغالب طبيعة الموضوع وندرة الكتابات الخاصة بالبستنة. كما أن منهجه في محاورة النصوص لم يقتصر على التوثيق وعمق الاستقراء والتحليل فحسب، بل نزع إلى طرح السؤال بغاية تجاوز ظاهر النصوص إلى سبر أغوارها؛ والكشف عما تكتنفه من مضمرات بغاية ربطها بسياقه التاريخي لبلاد المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط وبداية العصر الحديث.

الإحالات المرجعية:

(١) ابن بصال، **كتاب الفلاحة**، تعليق خوسي مارية بييكروسا ومحمد عزيمان، معهد مولاي الحسن، تطوان، ١٩٥٥م، ٤١-٤٨.

(٢) ابن حجاج، **المقنع في الفلاحة**، تحقيق صلاح جرار وجاسر أبو صفية، تدقيق وإشراف عبد العزيز الدوري، عمان، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦م، ٦-٧.

(٣) أبو الخير الإشبيلي، **كتاب في الفلاحة**، طبع على نفقة قاضي ورزازات التهامي الجعفري، المطبعة الجديدة الطالعة، فاس، طبعة ١٣٥٧ هـ، ٣-٤-٥.

(٤) المصطفى طهر، **كتاب الأغراس والبساتين في المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط وبداية العصر الحديث (الانتشار والوظائف والانحسار)**، منشورات مختبر التراب والتراث والتاريخ، مطبعة آنفو برانت، ط، ٢٠٢٢م.

(٥) نفسه، ٧.

(٦) نفسه، ٨.

(٧) ابن العوام (أبو زكرياء يحيى بن محمد بن أحمد)، **كتاب الفلاحة**، دراسة وتعليق غارسيا سانشيز- استيفان فرنانديز ميخو، مدريد، ١٩٨٨م، ج/١-٢.

(٨) **كتاب الأغراس والبساتين في المغرب الأقصى**، م س، ١٠-١١.

(٩) نفسه، ١٢-١٣.

(١٠) نفسه، ١٦-١٧.

(١١) نفسه، ١٨.

(١٢) نفسه، انظر تفصيل ذلك في الجدول الثاني الذي رصده المؤلف للتقويم المذكور، ٢١-٢٢-٢٣.

(١٣) نفسه، ٢٤.

(١٤) نفسه، ٢٥-٢٦٢٧-٢٨-٢٩-٣٠-٣١-٣٢-٣٣-٣٤-٣٥.

(١٥) نفسه، ٣٧-٣٨-٣٩-٤٠.

(١٦) نفسه، انظر الجدول الثالث، ٤٣.

(١٧) نفسه، ٤٩-٥٠-٥١-٥٢-٥٣.

(١٨) نفسه، ٥٤-٥٥-٥٦-٥٧.

(١٩) نفسه، ٥٨-٥٩-٦٠.

(٢٠) نفسه، ٦١-٦٢-٦٣.

(٢١) نفسه، ٦٢-٦٣-٦٤.

(٢٢) نفسه، ٦٥-٦٦.

(٢٣) نفسه، ٤١-٤٢-٦٦.

(٢٤) نفسه، ٦٧-٦٨-٦٩.

(٢٥) نفسه، ٧٠-٧١-٧٢.

(٢٦) نفسه، ٧٣-٧٤-٧٧-٧٨.

(٢٧) نفسه، انظر الجدول (رقم٤)، ٨١.

(٢٨) نفسه، وللتوسع انظر مناطق إنتاج أنواع الفواكه والمشمومات جداول أرقام: ٥-٦-٧-٨، صفحات: ٨٨-٨٩-٩٠-٩١-١٠٠.

(٢٩) نفسه، ١٠١-١٠٢-١٠٣-١٠٦.

(٣٠) نفسه، ١٠٥.

(٣١) نفسه، انظر الجدول (رقم ١٠)، الذي عقده لعواقب الكوارث على البساتين، ١٠٨.

(٣٢) نفسه، ١٠٩-١١٠.

(٣٣) نفسه، ١١١-١١٢.

(٣٤) نفسه، ١١٣-١١٤-١١٥-١١٦-١١٧.

(٣٥) نفسه، ١١٨-١١٩-١٢٠-١٢١.